المصدر :
**http://www.msryen.com/vb/showthread.php?t=3117**

## مخلوقات كانت رجالاً (1)

لا يوجد ثقاب يا حضرات.. هذه هي الحقيقة المريعة التي أدركتها بعد البحث في عشرة أماكن، والسبب كما قال لي البقال هو أن سعره سيرتفع ليصير جنيهين إلا الربع للقاروصة بعد ما كان جنيهاً. كما تعرف تكفي أي إشاعة في مصر عن ارتفاع سعر شيء ما كي يختفي من علي ظهر البسيطة. قال لي البقال هامساً: «هل تصدق أن المشابك الخشب اختفت كذلك ؟»!
لا أعرف أهمية المشابك الخشب ولست مستعداً للغضب من أجل اختفائها.الثقاب شيء تافه، وهذه الزيادة لعب أطفال بالنسبة لما حدث للزيوت والمكرونة واللحم والبنزين، لكن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لي فرحت أردد:
«ربنا ياخدهم أو ياخدنا !!»
والبقال ينظر لي في دهشة من ذلك الطبيب الذي فقد أعصابه لأن سعر الثقاب ازداد خمسة وسبعين قرشاً. لابد أنه تساءل عن مدي شُح هؤلاء الأفندية. لكن الثقاب ليس كل شيء بل هو آخر قائمة مرهقة من الأعباء التي تتضاعف يوماً بعد يوم وبسرعة لا تصدق بعد العلاوة إياها، حتي إن ذات البقال قال لي ذات يوم ساخراً:
«سعر الزيت النهارده كذا.. أصل أسعارنا بتتغير كل يوم زي الصاغة !»
ربنا ياخدهم أو ياخدنا.. هذا حل عادل بالنسبة لي، والثقاب مهم لنا إذا أردنا أن نحرق أنفسنا فلماذا يختفي ؟..
ماذا يريد هؤلاء القوم منا ولماذا لا يتركوننا نحيا ؟... لماذا يصحون كل

يوم من نومهم ليجعلوا الحياة أعقد ويتأكدوا من أننا نزلنا طبقة في السلم الاجتماعي ؟.. لماذا لا يكتفون ويرحلون بما سرقوه منا إلي جزر الكاريبي ليعيشوا كالملوك، ويتركوننا نحيا بما تبقي في هذا البلد ؟ .. وما الفارق بين أن تكون ثروة الواحد منه **20** مليارًا أو أن تكون **21** مليارًا ؟. هم فقط يريدون أن يعتصروا الليمونة حتي آخر قطرة .. لن يركبوا الطائرات المتجهة إلي سويسرا قبل أن يتأكدوا من أن آخر موظف قد صار حافيًا وآخر طفل قد مات بسوء التغذية وآخر سنتيمتر مكعب من الغاز الطبيعي تم ضخه لإسرائيل، عندها فقط يسافرون وينسون كل شيء عن مصر. .. ربما يظهر واحد منهم في التليفزيون السويسري ليتنهد ويقول: مصر أم الدنيا. .. واحشاني قوي...!

منذ أيام جاءني ذلك الشاب المصرفي المتأنق الذي أفرزه عصر الانفتاح بكثرة في مجتمعنا .. قميص قصير الكمين وربطة عنق ومن حزامه تتدلي عشرات الأجهزة المبهمة التي توحي بالأهمية، وكما يصف صنع الله إبراهيم هذا النمط فهو يستعمل طيلة الوقت لمحات من ثقافة غربية سطحية، وغالبًا يبيع الهواء. لابد من استعمال لفظة **CEO** و**Sale** و**Share** في كل جملة تقريبًا. جاءني يقنعني بأن.أدفع ألف جنيه شهريًا لمدة ثلاثين عامًا وسوف أظفر في النهاية بمبلغ كذا **!!** ..نظرت له وابتسمت .. هل أنت واثق من أن مصرفك سيكون موجودًا بعد ثلاثين عامًا ؟... هل سأكون أنا موجودًا ؟ .. هل مصر نفسها ستكون موجودة إذا استمرينا بهذا المعدل ؟ لم يرد .. ضحك في عصبية وقال: «دي حاجة بتاعة ربنا بقي.. هيء هيء هيء..!»

المشكلة هي أنك قد تكون ميسور الحال نسبيًا، لكنك لا تضمن أي شيء من أي نوع. عرفت جراحين زملاء لا يكفون عن العمل والكسب، برغم هذا يشعرون بقلق مريع من الغد، ومن اليوم الذي قد يصيرون فيه عاجزين عن العمل، فالجراح مثل أي شخص آخر (شغال علي دراعه). مهما ادخروا في المصرف فمن الوارد أن يفيقوا ليكتشفوا أن ما ادخروه صار يساوي **31** جنيهًا لا أكثر، أو أن المصرف ذاته لم يعد له وجود البورصة ؟.. هذا مكان مناسب كي تفلس فيه، وسوف تدرك وقتها أنه ليس مكانًا للاعبين الصغار بل هو مكان لعب

العمالقة الذين يخصصون مبلغًا لا بأس به للخسارة ..
من اشتروا عقارات صاروا عاجزين عن التصرف فيها بسبب الافتقار إلي السيولة.. أعرف أشخاصًا يملكون أراضي وشققًا لكنهم عاجزون عن بيعها رغم ارتفاع سعرها كل يوم.. من الممكن أن يجدوا من يدفع علي أقساط لكنك تعرف جيدًا أنه لن يدفع سوي قسط واحد ويكون عليك أن تلجأ للتقاضي وأن تقضي باقي حياتك في المحكمة ..
وماذا عن افتتاح مشاريع صغيرة ؟.. في شارعنا تجد في كل يوم مكبرات صوت ودي جي وتصوير فيديو وحلوي توزع، وقبلات علي الخدين وخيلاً ترقص مع افتتاح محل جديد. ثم تجلس في المحل فتاة شاحبة سيئة التغذية بالشبشب الزنوبة تنتظر أي زبون.. بعد شهرين يُغلق هذا المحل بسبب الكساد وتبدأ الدورة من جديد. الدورة التي لم يستفد منها سوي مصور الفيديو والدي جي..
أتكلم هنا بالطبع عن الأشخاص الذين يكسبون نسبيًا، ولديهم رأسمال صغير يريدون. أن يضعوه في شيء مضمون، فماذا عن الذين يعيشون من اليد إلي الفم وهم يتزايدون كل يوم ؟
كنت أمر جوار طابور من طوابير الخبز، عندما رأيت ذلك الرجل الأصلع ممزق الجلباب ذا الستين عامًا يخرج من الطابور بولادة عسرة حقيقية .. فمه مفتوح في لهفة والعرق يبلل جبينه وهو يحتضن كومة من أرغفة الخبز في حنان ووله حقيقيين.. صورة مجسدة للخلاص والفرحة والظفر ..
رأيته يتوقف إلي جوار الرصيف لحظة ليتأمل جيدًا في روعة ما حققه، وفي اللحظة التالية رأيت علي دراجة ذلك الصبي. الذي تشي ثيابه بأنه حرفي، ينقض علي الرجل ليخطف بضعة أرغفة من الكومة وينطلق مبتعدًا بسرعة البرق. في ثوان تحول وجه الرجل إلي الحسرة المجسمة ودموع الغيظ احتشدت في عينيه لكنه صار عاجزًا عن الغضب أو السباب .. شيء ما في عينيه يشي بأنه فقد إنسانيته فلم تبق لديه من عاطفة إلا الجوع والظمأ...
قلت لنفسي: الحمد لله أنني لست المسئول المباشر عن هذا الرجل ولا الفتي السارق. برغم هذا كل واحد فينا مسئول .. يجب أن تتذكر

هذا وأنت تدخل فراشك ليلاً..
خطر في ذهني عمنا «مكسيم جوركي» وما كان سيكتبه لو رأي هذا المشهد. بطبيعة الحال كان أقدر علي رؤية هذه التفاصيل، وقد قرأت له منذ زمن سحيق مجموعة قصصية رائعة اسمها (مخلوقات كانت رجالاً) ترجمة (سعد توفيق) تحكي عن مجموعة من النماذج البشرية التي (أكل عليها الدهر وشرب وقضي حاجته)- علي رأي بلال فضل الذي أفتقده كثيرًا- وهذه النماذج تعيش كلها في مسكن رخيص الثمن شديد القذارة أقام فيه الكاتب لفترة ما من فترات شبابه الصاخبة.
بالفعل هي مخلوقات كانت رجالاً وكان يمكن أن تحصل منها علي نفع أكبر بكثير من الوقوف ساعات في طوابير الخبز أو سرقته.
قررت أن أكتب في الأسابيع القادمة عن هذه المخلوقات التي كانت رجالاً في عالمنا هذا، والتي أفقدها الفقر الكثير من إنسانيتها.. أكتب عنها لأنني لا أملك أن أقدم لها شيئًا آخر... وللحديث بقية.
""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""
""""""""""""""""""""""""""

## مخلوقات كانت رجالاً «2»

القصة واقعية تمامًا، لكن لو كانت قصة بوليسية ولو كان كاتبها أحد أساطين القصص البوليسية من وزن «أجاثا كريستي» أو «إيلري كوين»، لكان اسمها «قضية سرقة الحقنة الشرجية»، ولبدأت كما يلي:

أشعل المفتش «أرشيبالد مكالستر» من سكوتلانديارد غليونه وجلس في مقعده الذي كان مقعد طبيب القسم منذ دقائق، وقال للطبيب مفكرًا:
ـ«ما زلت لا أفهم القيمة المادية لهذه الحقنة الشرجية حتي يقوم أحد بسرقتها».

قال الطبيب: «لا قيمة لها علي الإطلاق.. عامة هي مجرد كوز صديء من الصفيح يتصل بخرطوم، ولدينا واحدة فقط في قسم الرجال

وواحدة في قسم الحريم. نحن لا نستطيع الاستغناء عنها لأننا ننظف قولون مرضى الغيبوبة الكبدية بانتظام، وعامل القسم هو الذي يجري هذه العملية. منذ أسبوعين تبرع أحد فاعلي الخير للقسم بحقنة شرجية أنيقة «زي العروسة» لونها أزرق جميل.. هكذا صار لدينا ثلاث حقن شرجية، لكن مشكلة الروتين والبيروقراطية بالنسبة لهذه الهبات هي أنها لا تدخل دفاتر العهدة إلا بعد إجراءات معقدة .. وهذا يعني أنه لا صاحب لها .. كلما ابتعنا شيئًا بالجهود الذاتية وقعنا في ذات المشكلة، وسرعان ما يُتلف أو يسرق»

-«من الممكن أن يحتفظ بها الطبيب في خزانته».
-«هذا يعقد الأمور أكثر .. لأنها مطلوبة طيلة الوقت تقريبًا»
فكر المفتش قليلاً ثم طلب استدعاء عامل القسم ..

دخل العامل متوترًا وقبل أن يوجه له أحد أي اتهام راح يقسم أغلظ الإيمان أنه لا يعرف أي شيء عن مصير الحقنة . فقط هو كان يضعها في الحمام.. يعلقها فوق ماسورة الماء الصدئة وقد استعملها عشر مرات في يوم الجريمة.

-«في العاشرة مساء أمس دخلت الحمام مع عم «شحاتة» لأجري له الحقنة لأن ابنه غير موجود، هنا فوجئت بأن الحقنة ليست في مكانها .. لقد جن جنوني وفتشت كل مكان في القسم .. هكذا اضطررت أن أستعمل الحقنة القديمة»

سأله المفتش «مكالستر» وهو يعيد إشعال غليونه: «هل لاحظت أن هناك من يهتم بها بين مرضى القسم ؟»
قال العامل: «كلهم .. منذ ظهرت بلونها الأزرق الجميل والكل ينظر لها بإعجاب واشتهاء.. حتي إنني أنذرت حكيمة العهدة من أنني أخشي أن تُسرق .. قالت لي إن هذه ليست مسئوليتها».
بالنسبة للمفتش كان العامل بعيداً عن دائرة الاشتباه لأنه يتعرض

لإغراءات كثيرة مع أجهزة أغلي ثمنًا ومنذ أعوام طويلة. يجب أن تنحصر دائرة الشك في الوجوه الغريبة عن القسم ..

راح يفكر بحيرة وهو يتأمل سحب الدخان:
ـ«هذه سرقة محيرة .. ما الذي يمكن أن يفعله المرء بحقنة شرجية قذرة استعملها العشرات قبله ؟.. إن بيعها صعب جداً علي ما أظن».
يمكن أن يسرقها المرء لو أراد أن يفتتح مستشفي خاصًا لكن هذا يعقد الأمور لأنه قد يؤدي لاتهام الأطباء كذلك. وفجأة بدا أنه وجد طرف الخيط .. طلب من الطبيب قائمة بأسماء المرضي الذين تقرر خروجهم اليوم. .. كان هناك ثلاثة مرضي. .. مريض منهم اسمه «بيومي أبو سمك» يتلقي حقنًا شرجية بانتظام.

طلب المفتش أن يري عم «بيومي» هذا، وكان المريض العجوز يجلس فوق فراشه الذي فرش عليه جريدة، وفوق الجريدة انتشر خليط من الأرز والفول والخضار وبقايا الدجاج والجبن القديم .. طعام المستشفي مع الطعام الذي يرسله أهله.. إنه يجلس القرفصاء حتي أنك لتحسب قدمه الغليظة الحافية صنفًا من أصناف الطعام الذي يأكله. . جوار الرجل كانت حاجياته التي حزمها بانتظار قدوم أسرته ليعيدوه لقريته...
ـ«بسم الله».
قالها عم «بيومي» لمفتش سكوتلانديارد لكن هذا لم يرد المجاملة، ومد يده يعبث في حاجيات الرجل ثم بحركة درامية مد يده إلي لفافة صغيرة وفتحها، وأمام عيون الجميع ظهرت الحقنة الشرجية الزرقاء.
صاح الجميع في ذهول غير مصدقين أن هذا العجوز الطيب يمكن أن يسرق شيئًا ثمينًا كهذا، ودمعت عينا عامل القسم وهو يدرك أن العجوز خدعه. لو كان الأمر بيده لشنقه هنا والآن .

قال المفتش وهو يشعل غليونه في رضا: «الأمر منطقي وبديهي يا عزيزي «واطسون».. الحقنة الشرجية لن تُباع .. هناك في الغرب

نوع من الجنس الشاذ اسمه **Enema sex** لكنه غير معروف في بلدكم لحسن الحظ. .. إذن من سرق الحقنة سرقها لاستعماله الشخصي فقط .. كي ينظف قولونه في بيته. هكذا ضيقت دائرة الاشتباه.. شخص يوشك علي مغادرة المستشفي ويشعر بالذعر لأنه لا يملك ثمن حقنة شرجية يعالج بها نفسه في بيته. هكذا اختمرت فكرة الجريمة في ذهنه وأحسن التنفيذ وكاد يفلت بفعلته لولا أن المفتش مكالستر هنا».

كان العجوز يبكي بحرقة، عندما تدخل الطبيب المقيم ملاحظًا: «أنا كتبت لك الخروج صباح اليوم فمن أين جئت بهذه الوجبة ؟»
بصوت خفيض اعترف العجوز بأنه سرق صينية من الفتاة التي توزع الوجبات لأنه كان جائعًا ، وقد أضاف للصينية بقايا طعام أمس .. عمت السعادة الجميع بينما قال المفتش في رضا وهو يلبس معطفه:
ـ «كانت من أعقد القضايا التي قابلتها في حياتي المهنية، لكن خلايا عقلي الرمادية لم يعجزها أن تحل قضية الحقنة الشرجية»

كما قلت لك : القصة واقعية تمامًا لو أنك حذفت المفتش لأن التحقيق قام به الطبيب المقيم نفسه، وهي تثير أسئلة كثيرة عن مريض فقير وعامل فقير وممرضة فقيرة وطبيب شاب فقير في واقع يزداد قسوة كل يوم. عم «بيومي» الذي سرق حقنة شرجية باعتبارها نوعًا من الرفاهية يستحق مكانه بلا شك ضمن المخلوقات التي كانت رجالاً.

من ضمن هذه المخلوقات - وما دمنا في عالم المستشفيات - ذلك الفتي الذي كان مصابًا منذ أعوام بمرض مزمن نادر يجعله يبقي في المستشفي فترات طويلة جدًا، وقد لوحظ أنه يختفي من فراشه والمستشفي كثيرًا، ويعود محملاً بأعذار لا تنتهي تدفع الطبيب المقيم إلي شطب عبارة «خروج هروب» التي كان قد كتبها في كراسة العلاج. لكن أشياء كهذه لا تظل سرًا .. وقد انكشف الأمر.عندما لاحظ أحد الأطباء شابًا يتسول بقرب مسجد «السيد البدوي» علي كرسي

متحرك، ولاحظ أن الكرسي المتحرك قد كتب علي ظهره بحروف واضحة «باطنة رجال». الفتي لم يكن يفر من المستشفي فقط بل كان يفر بالمقعد المتحرك كذلك ليستخدمه أداة للتسول !. بالطبع سببت هذه القصة مشاكل لا حصر لها لعمال القسم ورجال الأمن الذين لم يستطيعوا فهم الطريقة التي كان الفتي يخرج بها كل مرة. حدث هذا منذ أعوام طويلة فلا أعرف إن كان الفتي ما زال حيًا أم توفي لكني أعرف أنه كان مدمنًا للبرشام كذلك. عندما تكون فقيرًا ومدمنًا فلا مفر من أن تتحول إلي لص أو متسول أو تاجر مخدرات.. هكذا تصير الأمور ....

ولنا لقاء آخر مع مزيد من المخلوقات التي كانت رجالاً في الأسبوع القادم

""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""

## مخلوقات كانت رجالاً **( 3 )**

هل تراها ؟.. بالتأكيد يمكنك ذلك.. من مكانك في الشرفة وكوب الشاي في يدك، تراها وهي تمشي في الشارع صباحًا وتمارس عملها اليومي ...

ما هو عملها اليومي ؟... التنقيب في أكياس الزبالة طبعًا .. الأكياس السوداء عدو البيئة إياها، والتي يضعها سكان كل بناية أمام بنايتهم بانتظار قدوم الجرار، وهذه الأكياس هي هدف هذه المرأة التي لا اسم لها ولا وجه لها... إن وجهها مغطي بطرحة سوداء، وهي تجد السير في حذر وقد تعلمت الكثير من طباع القطط الضالة وشراستها وحذرها وتوجسها الدائم.. قط أسود كبير يفتح الأكياس ويبحث فيها عن شيء يؤكل .. شيء يلبس.. فردة حذاء قديمة هنا وكيس من الخبز الذي انتهت صلاحيته هناك. ..

تعرف أنه لو رآها أحد السكان لشتمها أو ضربها، لذا تختار هذه الساعة المبكرة من النهار حيث لا أحد سواها والقطط الضالة ، ومن

خلفها يمتد أثرها .. أكياس فرغت من محتواها وقد اتسخ مدخل كل بيت من هذه البيوت .. لكنها كما قلنا تعلمت طباع القطط فلا يمكن أن يضبطها أحد أبداً. ...
من أين جاءت؟.. أين تبيت ليلتها ؟.. الجواب سهل .. لقد جاءت من حيث يأتي هؤلاء. .. تلك المخلوقات التي كانت رجالاً والتي تجدها في كل صوب وكل ركن. ...
عندما تتواري هذه المرأة - القط تظهر أم «آية». أم الواقفة. عدة أعمال في وقت واحد، فهي تنظف السيارات الواقفة .. في الواقع هي تزيدها قذارة، لكنها ترفع المساحتين علامة لا شك فيها علي أنها أنجزت عملها. تبيع الشاي لبائعي الخضر وعمال البناء في كل مكان .. تبتاع الخبز لربات البيوت - عندما كان هناك خبز - وتبتاع الخضر من السوق، وأحياناً تجلس علي الرصيف تقطف الملوخية أو تقور الكوسة لواحدة من ربات البيوت المشغولات. لا يتم تنظيف أي شقة في الحيٍ كله إلا ووجدت أم «آية» تقف في الشرفة وهي توسع المراتب ضرباً .. أحياناً تقوم بالصويت علي من يموت من السادة كذلك وتشارك في غسل نسائهم.
بما أن الفقر والمرض والإدمان هي عجلات دراجة ثلاثية، فإن أم آية لها ابنة مصابة بعيب خلقي في الصمام الأورطي وأختها مصابة بسرطان القولون، وهي نفسها مصابة بسقوط رحمي يجعلها تبول علي نفسها باستمرار . لكنها لا تملك ترف الاعتراف بالمرض، لأنها ترتجف من اليوم الذي لا تقدر فيه علي العمل.
قالت لي ذلك في اليوم الذي رأيتها فيه متورمة العين مع هالات سوداء كأنها حيوان «الراكون» الذي نراه في الموسوعات المصورة. قالت لي إن زوجها أوسعها ضرباً، لأنها لم تعطه المال الذي كسبته :
ـ«كل مرة يصرف القرشين علي الطينة والمية..»
بسذاجة بدا لي تصرف هذا الرجل شاعرياً.. إنه مولع بالزراعة إذن وهو اهتمام راق، لكنها ضحكت كاشفة عن فم لم تبق فيه سوي سن واحدة وأخبرتني في صبر أن الميه هي «البوظة» والطينة هي «الحشيش». هكذا رزقت هذه المرأة بالذات بزوج ينفق كل مليم

تكسبه علي الكيف، ولا يعمل علي الإطلاق، لتصدق عليه مقولة «سوفوكليس» في مسرحية «أوديب» عن رجال مصر التي أثارت غيظي عندما قرأتها يومًا ما..

ولهذا فهمت سر سعادتها البالغة يوم رأيتها تمارس عملها برغم أن وجهها كله كان متورمًا. قالت لي في مرح، خفيفة كالعصفور:

ـ«بالك إيه ؟.. مش أبو آية طلقني !!»

أبو آية يمكن الخلاص منه، لكن كيف يمكن الخلاص من الفقر ؟.. وكيف تعيش اليوم وحصار الحياة يزداد ضيقًا يومًا بعد يوم ؟.. الله أعلم. لكنك تراها بسهولة وهي تحوم حول محل الجزار القريب من دارنا .. تقف علي بعد خطوات وتنظر للحم في اشتهاء، وتكرر من دون مناسبة:

ـ«كل سنة وانتو طيبين ..»

فتجهد ذهنك محاولاً تذكر أية مناسبة هذه .. لا توجد أية مناسبة دينية أو وطنية .. ربما هو عيد ميلاد الجزار ؟.. تكرر «كل سنة وانتوا طيبين» مائة مرة وتحوم من جديد، حتي تأتي اللحظة المصيرية التي يمد فيها الجزار يده إلي قطعة لحم تزن خمسة جرامات ولا تقبل أن تأكلها قطة محترمة، فيلفها في كيس ويناولها لها في اشمئزاز. تنطلق في منتهي السعادة عالمة أنها لن تذوق ذرة من هذا اللحم، لكن أولادها سيفعلون ... لقد شفّت هذه المرأة حتي لم تعد تريد أي شيء لنفسها، بل لهؤلاء التعساء الذين جاءت بهم للعالم.

في وقفتها عند الجزار شيء يذكرني بالقطط الضالة... القطط التي تقف حول المحل مهمومة قلقة بدورها .. هكذا الفقر عندما يذيب الحدود لا بين الطبقات بل بين الأنواع ذاتها، حتي توشك أن تسمع ذلك القط الأجرب يقول لذلك القط الأعور: «الأخ ملقاط والا هجام ؟» وتوشك أم آية أن تموء.

تنصرف أم «آية» فقط ليحتل مكانها أمام الجزار أبو «عماد» أو أبو «صلاح» .. معدل التقاطر قد صار عاليًا جدًا.. متسول كل ثلاث دقائق ...

من نهاية الشارع تري «رضا» الصغير ذا الست أعوام قادمًا والمكوة

تحت إبطه علي قطعة خشب كانت مسند مقعد، وهو يرفع ذراعه عاليًا بشماعة عليها سروال مكوي.. بمعجزة ما يتمكن ألا يتسخ طرف السروال بالغبار برغم قامته القصيرة، وهو يدق جرس الباب ثم يستفيد من وقته بأن يشوط قطعة طوب صغيرة إلي أن ينفتح الباب.
«رضا» يتمني أن يلعب طيلة اليوم، لكن أباه يريد فعلاً المبلغ البسيط الذي عليه من هذا العمل، دعك من أن الأسطي «بيومي» ليس سيئًا ولا يضربه كثيرًا. تفتح له الباب ربة البيت وتسأله عن الثمن، لكنه مهتم أولاً بأن يسترد الشماعة .. هذا أهم ما في الموضوع والسبب الأول لتلقيه الضربات. صوت البام بام طاخ طوخ يلفت نظره بشدة فيطل من فرجة الباب ليري طفلين بثياب حسنة يلعبان «بلاي ستيشن»، فينسي نفسه ويزحف بضع خطوات ويندمج تمامًا مع الشاشة حيث دراجة بخارية تطارد سيارة وتطلق عليها النار.
يتمني أن تتأخر ربة البيت قليلاً لكنها تعود سريعًا وتعطيه المال وتفاحة فاسدة وجدت أنه من الأفضل أن تعطيها له بدلاً من رميها! .. بهذا تجمع بين الإحسان والتخلص من التفاح الفاسد. وينصرف رضا الصغير .. لا يعنيه أنه صغير السن جدًا .. لا تعنيه الأسئلة الكثيرة عن الغد وكيف يتعلم ويتزوج ويسكن. .. لا تعنيه حقيقة أن هذه الأسرة التي تبدو ثرية قد بدأت تئن بدورها من الغلاء... كل هذا لا يعنيه. ما يعنيه هو أنه سيعرج علي الحارة القريبة ليلعب الكرة الشراب لمدة عشر دقائق مع الواد بطاطة، وسوف يزعم للأسطي أن صاحبة البيت هي التي أخرته.. إن المستقبل رائع .. رائع لدرجة لا توصف. ....
""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""

## مخلوقات كانت رجالاً «4»

موكب الزفاف الفاخر يتقدم نحو مدخل قاعة الأفراح الكبري، والعريس والعروس يتظاهران بالسعادة، يحيط بهما أفراد الأسرة والأصدقاء، وقد خرج الجميع لاقتناص الفرص. ابن فلان بيه وابنة علان بيه.. إنه لحدث مهم حقًا. هناك تلك الفرقة التي تقوم بالزفة، وهم كالعادة

مجموعة من الفتية يحملون الدفوف وفي وجه كل منهم أثر من مشاجرة قديمة بالمطاوي، ولا تفهم أي حرف من الذي ينشدونه سوي أن كل مقطع ينتهي بكلمة «الليلة».. يضغطون عليها لتعطي إيحاءات بذيئة غامضة. . من مكان ما تدوي زغرودة ويقذف أحدهم بقطع الشيكولاته الفاخرة فوق العريس فتساقط. علي الأرض. هنا - من مكان ما وبطريقة ما - ظهر هؤلاء الصبية الثلاثة بثيابهم القذرة المرقعة .. وثبوا كالقرود من وراء الأشجار لينقضوا علي قطع الشيكولاته علي الأرض. فما إن استعاد القوم رشدهم حتي انهالوا بالركلات علي هؤلاء الثلاثة.. هؤلاء الأوغاد الذين شوهوا صورة الفيديو وطابع الرقي العام ..

ـ«وله يا ابن الـ .وسع يا له !»

للركلات مزية مهمة هي أنها تبقيك بعيدًا عن هذه القذارة .. لا تتسخ بذلتك ولا يداك ..

لكن الصبية تلقوا الضربات وهربوا وهم مفعمون بالسعادة .. لقد امتلأت الأيدي بالشيكولاته وهذا هو ما يهم في الوقت الحالي. صديقي الأديب كان واقفًا ضمن الواقفين فنظرت له ونظر لي وعرفنا أننا نفكر في الشيء ذاته .. قلت له هامساً: «جوركي» ينادينى ! أي أنني تخيلت ما كان «مكسيم جشك.» سيكتبه لو رأي هذا الموقف.. هؤلاء الصبية آتون من عالمه بلا شك ..

من أين يأتون فعلاً ؟.. إلي أين يذهبون ؟.. لا أحد يعرف .. بعد أن يأكلوا الشيكولاته سوف يبحثون عن شيء آخر يسرقونه، ثم ينامون في الشارع إلي أن يظفر بهم «توربيني» آخر يغتصبهم فوق سقف القطار التوربيني ثم يلقي بهم من فوقه ليموتوا.. هذا بالنسبة لسعداء الحظ منهم ..

بالطبع كل هذه القصص واقعية تمامًا ولا دور لخيالي فيها، لكني قمت بتغيير الأسماء. لم أنس بعد قصة «عادل» مريض الصدر الذي كان مصابًا بعدة كوارث في الرئتين، وقمت في جلسة علمية بعرض صورة الأشعة الخاصة به وعليها اسمه الكامل. يومها قالت لي د. «وفاء الشيمي» أستاذ الأمراض الصدرية: "كان يجب أن تحذف الاسم.. هو

مش كفاية اللي هو فيه. لم أنس عبارة اللوم هذه قط، وتذكرت أننا أحيانًا نعامل هؤلاء التعساء كأشياء حتي إن لم نتعمد القسوة ..
عم «حسن» واحد آخر من تلك المخلوقات التي كانت رجالاً..
بواب البناية العجوز الطيب .. إنه واحد آخر ممن يعملون كل شيء في كل وقت لأي شخص. .. يعيش مع زوجته وابنه في المدينة بينما يترك بناته مع عمتهن في قريته. إنه لا يستطيع أن يطمئن لوجود بناته المليحات مكتملات الأنوثة في هذه المدينة المليئة بالشباب الرقيع .. الشباب الذي يحلق شاربه ويركب سيارات فاخرة «أمه جاييهاله» يصدر بها صوت فرملة عالية. هذا دليل كاف علي رقاعتهم، وعندما يمسح سيارة واحد من هؤلاء بالمنشفة فإنه يعرف يقينًا أن هذا الفتي ذاهب لممارسة الكبائر بأنواعها .. لا .. لن تصمد أي بنت من بناته أمام وغد من هذا النوع.
فقط يسمح لابنه بأن يوجد هنا معه، وقد لمحت الطفل ذات مرة فأدركت أنه مصاب بمرض عضال .. لا أعرف ما هو بالضبط لأنني لست خبيرًا في أمراض الوراثة لكنه كارثة. ولهذا أرسلته مع عديد من التوصيات إلي أحد أساتذة طب الأطفال من أصدقائي.. افعل كل شيء ولا تأخذ منه مليمًا .أرجوك. ..
يتصل بي أستاذ الأطفال مذعورًا بعد ما رأي الطفل .. هذه حالة لابد من دخولها المستشفي حالاً.. إنها حالة متقدمة. المرض النادر الفلاني، ولابد من أن تكون في المستشفي هنا والآن، وإلا فهو غير مسئول عما سيحدث..
لكن عم «حسن» يرفض .. يرفض بإصرار .. يقول لي :
ـ «سعادتك أنا مش عايز له دخول.. أنا عاوز شوية برشام وإبر بس..»
أوكد له أننا ستجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن، وأنه لن يدفع مليمًا لأن المستشفي مجاني .. أستاذ الأطفال وعد بألا يدفع الرجل شيئًا .. لكن عم «حسن» مصر. ...
هنا فقط أفهم الحقيقة: قطار الحياة سريع لا يسمح له بالقفز منه لمرضه أو مرض أحد من أسرته. معني دخول المستشفي هو أن

يستغني عن زوجته عدة أيام لأنها ستكون مع الطفل. حياته لا تسمح بهذا الترف.. هناك أفواه جائعة في القرية تحتاج إلي من يطعمها، وهناك فتيات لابد من تزويجهن وتجهيزهن، وهو لن يقدر علي ذلك في غياب زوجته. أما النقطة الثانية الأهم فهي أن الطفل بحالته الحالية يتيح له الظفر بما يهبه ذوو القلوب الرحيمة، أما دخول المستشفي فهو الخراب التام.. لم أصدق هذا التصور حتي أكده لي عدد من سكان العمارة: الرجل ليس راغباً في العلاج بل هو راغب في التسول فقط .. لو أردت أن تخدمه فلتعطه ما تيسر من مال في جيبك، لكن لا تتفلسف بعقلك المترف الذي أتلفته الكتب، ولا تزد متاعبه وتشعره بأنه أب قصر. ..

من الغريب بالفعل أن الرجل صار يتحاشاني كالطاعون. لقد كانت حياته تسير علي وتيرة منتظمة قاسية لكن يمكن التنبؤ بها، فجئت أنا لأشعره بأنه مقصر وأن هناك الكثير مما يقدر علي عمله... هكذا لم يعد يطيق رؤيتي، وما زال طفله مريضاً وحياً بمعجزة ما ...

المخلوقات التي كانت رجالاً.. هذه المخلوقات يرغمها القهر أحياناً علي أن تفقد بعض آدميتها، من ثم تصير أكثر قسوة. .. هذه القصة لم أمر بها لكن أحد الأطباء من أصدقائي الموثوق بكلامهم تماماً عاشها كاملة بما تطرحه من علامات استفهام. الصغير «جمعة» مصاب بالتهاب رئوي متقدم وهبوط في القلب .. أمه فلاحة تعسة نحيلة مذعورة يبدو أنها تعيش بمعجزة ما. تم دخول الرضيع ليلا إلي قسم الأطفال وقلبه يكافح كي ينبض كل نبضة، وتم وضع قناعٍ الأكسجين علي أنفه الصغير لأنه الشيء الواهن الذي يبقيه حياً. جوار فراش «جمعة» أم أخريٍ محنكة أكثر فقراً تجلس ورضيعها في حجرها وكان قد شفي تقريباً . إنها تراقب جارتها المذعورة أم «جمعة» وتمصمص بشفتيها وتوصيها ببضعة أشياء تنتهي دائماً بكلمة «يا شابة» أو «يادلعدي»... صديقي الطبيب يجلس في مكتبه، وأم «جمعة» تترك رضيعها علي الفراش إلي أن تجد دورة المياه في تلك الممرات المظلمة، وتطلب من جارتها المحنكة أن تعني به. ينهض الطبيب ليدخل العنبر فيفاجأ بمشهد لا يفارق كوابيسه.. «جمعة» الصغير مقلوباً علي ظهره

كسلحفاة أزرق اللون يجاهد طلبًا للهواء وصدره يعلو ويهبط بطريقة مثيرة للشفقة، أما قناع الأكسجين فقد انتزعته الأم المحنكة ووضعته علي أنف ابنها هي !.. لقد اعتقدت أن الأكسجين شيء ثمين ومفيد للجميع، لهذا قررت أن تسرق بضعة أنفاس منه لرضيعها في غياب أمه .. لم تكن تنوي ترك «جمعة» حتي الموت. .. بالتأكيد كانت ستعيد القناع في الوقت المناسب، لكن الفقر يولد غريزة «الاستخسار» حتي لو لم يكن رضيعها بحاجة لهذا....

وما زلنا مع المخلوقات التي كانت رجالاً....

""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""""
""""""""""""""""""""""""""""""""

## مخلوقات كانت رجالاً «5»

خبر شديد الروعة نشرته جريدة« الأهرام» في 16 سبتمبر 2007، وهو يحكي التالي بالحرف:

«تعرض أحد تجار الصاغة بالعريش لسرقة منزله أثناء خروجه لشراء بعض الاحتياجات ، هذا علي الرغم من إحكام وإغلاق النوافذ والأبواب، لأنه يحتفظ بالمجوهرات داخل منزله ، وبعد ساعة ونصف فقط عاد فوجد جميع المصوغات وتقدر بـ 250 ألف جنيه قد سرقت . وأمر اللواء منتصر شعيب - مدير أمن شمال سيناء- والعميد علي أبوزيد- مدير إدارة البحث الجنائي- بتشكيل فريق بحث برئاسة الرائد أحمد رمضان -رئيس مباحث قسم ثاني العريش - وتبين أن أحد الطلاب وصديقًا له يقيمان بجوار منزل الصائغ شوهدا بعد السرقة مع مجموعة من أصدقائهما........»

جميل جداً .. هذا ما اعتدناه في الحوادث المماثلة .. طبعًا شوهد السارق وصاحبه في أحد الملاهي الليلية يشربان أغلي الخمور وينفقان بسخاء علي الراقصات والليالي الحمراء.. لكن الخبر يقول: «شوهدا بأحد المطاعم الكبري بالعريش يتناولان شاورمة ويشربون مياهًا غازية غالية الثمن، وبسؤالهما عن مصدر النقود التي بحوزتهما انهارا واعترفا ، والطريف أن أحد اللصين وجه العتاب لزميله أثناء التحقيق: قلت لك بلاش شاورمة البوليس هيشتبه فينا.. وإنت صممت

عليها أهم قبضوا علينا»!
يا نهار أسود !... حتي اللصوص تدني حالهم إلي هذه الدرجة ؟.. لم يقبض عليهما وهما يلعبان القمار في فندق فاخر، ولكن قبض عليهما وهما - هذان الوغدان الشرهان - يأكلان الشاورمة ويشربان المياه الغازية غالية الثمن. ثم ما هي المياه الغازية «غالية الثمن» هذه ؟.. «كانز» يعني ؟.. وهل أكل الشاورمة صار مصدر اشتباه يدفع مخبري الشرطة للشك في مصدر هذا الـ ؟...
هذان لصان أكثر غلبًا وبؤسًا من أية ضحية محتملة، والدليل أنهما جائعان .. سرقا ربع مليون فكان أول شيء فعلاه هو شراء ساندوتشي شاورمة.. والفتي الفطين يعرف جيدًا أنه قام بجريمة شنعاء بأكل الشاورمة، حتي أنه يوجه اللوم لصاحبه علي هذا الاستعراض الأحمق الذي قاما به. ليس عندي تفسير لغرابة هذا الخبر سوي أن يكون ساندوتش الشاورمة في العريش ثمنه خمسة آلاف جنيه!
تذكرت صديقًا لي يعد نفسه أنه لو رزق بمليون جنيه، فلسوف يكون أول شيء يفعله هو شراء كيلو من الكفتة والتهامه وحده، دون أن يشعر بتأنيب الضمير الذي يلازم المصري من الطبقة المتوسطة عند التهام اللحوم!
تغير أنماط اللصوصية، والاهتمامات غير العادية لدي اللصوص تثير دهشتي وتعطي فكرة أفضل عن التغيرات الاجتماعية. في المقال الأول حكيت عن سرقة الخبز من الطابور بطريقة (اخطف واجر)، وبعد هذا قرأنا عن عصابة متخصصة في السطو علي الخبز. هناك تنظيمات عصابية كاملة مهتمة بسرقة أغطية البلاعات.. السؤال المنطقي هنا هو مدي الاستفادة من غطاء بلاعة، لكن الإجابة هي أنها ثروة ثقيلة من الحديد الزهر يسهل بيعها. وهكذا تتحول الشوارع ببطء إلي غربال مليء بالثقوب، ونسمع عن السيدة الوقور التي مشت في شارعها ليلاً فسقطت في بالوعة.. لا تنس أن هناك من يسرق اللمبات من أعمدة النور كذلك . هكذا وجدت هذه السيدة الوقور نفسها في موقف لا تحسد عليه، بينما سائق سيارة نصف نقل ابن

حلال يربطها بحبل غليظ «سلبة» ويتعاون مع أولاد حلال آخرين علي إنقاذها..
هناك تلك القرية قرب مدينتي التي استيقظت علي رائحة عطنة تجتاح المكان، وبالتدقيق والبحث اتضح أن هناك عصابة تخصصت في سرقة أبواب المقابر الحديدية.. يعني تصحو القرية لتجد أن كل مقابر أعزائها مفتوحة. وماذا عن المطب الصناعي الذي اضطروا لإزالته لأن هناك من يسرق في كل مرة اللافتة التي تنذر بوجوده . هكذا تكررت الحوادث كلما اندفعت «سارة علي الطريق السريع لتكتشف المطب فجأة، فيضغط سائقها الفرامل وتتقلب.. ماذا يمكن عمله بلافتة كتب عليها «احترس .. أمامك مطب صناعي» ؟.. هناك بالتأكيد جهة ما تشتري هذه اللافتات ومعها كل أغطية البلاعات وبوابات المقابر!
يعود ابني من الدرس الخصوصي مذعوراً ليخبرني أن صديقين له كانا يقفان أمام البناية التي يقطن فيها المدرس، عندما فوجئ أحدهما بمن يضع نصلاً حاداً تحت عنقه من الخلف ويأمره بأن يعطيه الهاتف المحمول وما معه من مال. ثم يفر هارباً ليكرر الفعل ذاته بعد يومين .. يحدث هذا في الثانية بعد الظهر في أحد أهم شوارع مدينتي وأكثرها ازدحاماً، ولم يحدث في شارع مهجور مقفر ليلاً. يخبرني ابني أنهم أخبروا «المستر»الذي كان مدرس رياضيات لحسن الحظ، لهذا أخذ الفرجار العملاق الذي يدرسون به والذي يصلح كرمح. ونزل إلي الشارع ليبحث عن اللص .. طبعاً لم يجد أحداً! ... لابد أن هذا اللص مخلوق كان رجلاً يوماً ما، ولابد أن البانجو أودي بعقله حتي يفعل هذا كله في الزمان والمكان الخطأ..
في كارثة تسرب أسئلة امتحان الثانوية العامة في المنيا - ومصر كلها علي الأرجح - نكتشف أن المتهم الأول وهو رئيس لجنة، قد حصل علي رشوة من أربعة متهمين مقابل تسريب أسئلة امتحانات الثانوية العامة. هذه جريمة شديدة الخطر فلابد أنه تقاضي مليون جنيه علي الأقل مقابل هذا .. لكنك تكتشف أنه فعلها مقابل **3600** جنيه كما ورد في جريدة الدستور عدد **27** يونيو صفحة **3** هذا نموذج فريد للسرقات الرخيصة .. كما كانوا يقولون: الشرف غال يجلب ثروة

حقيقية لمن يبيعه. لكننا في هذه الحالة نقابل من يبيع الشرف بأرخص الأثمان أو بلا ثمن تقريبًا!

ألا تري معي أن هذه مخلوقات كانت رجالاً فعلاً ؟

وماذا عن ذلك الشاب الذي يقف علي باب دورة المياه العمومية ليناولك قطعة صابون ومنديلاً ورقيًا مع ابتسامة متملقة ؟ .. طبعًا من أجل ما سوف تلقي به في علبة المناديل الفارغة جواره. باختصار هذا شاب مفعم بالطاقة والنشاط صارت مهنته في الحياة أن يتأكد من أن البك قضي حاجته جيداً. الشاب الآخر الغارق في العرق والغبار الذي يدق بابك ليعدك بـأنك لو اشتريت زجاجتين من منظف الأرضيات الفلاني فلك زجاجة ثالثة هدية .. وماذا عن الشاب الذي يستوقفك وأنت متعجل ليسألك وهو يسد الطريق سداً عن «الملك الفرعوني الذي شيد من أجله تمثال رمسيس ». تقول بذكاء: رمسيس يا أخي .. فيصيح في انتصارمبروك. .. أنت فزت وسوف تحضر حفلنا غداً وتنال جوائز قيمة، لكن عليك دفع عشرة جنيهات كتأمين. .. في الحفل سوف تعرف الكثير عن نظام «التايم شير» الخاص بنا، وكيف يصير ذلك الشاليه الجميل ملكك للأبد أسبوعًا كل عام..

أبتلع ريقي وأفتح النافذة طلبًا لنسمة من الهواء النقي. هذه المخلوقات التي كانت رجالاً تتكاثر ويمكن أن تجدها في كل ركن وتحت كل حجر. سوف تأخذ حقها في الحياة بأي شكل ممكن عندما تدرك أن الموت لأطفالها محتوم ولا مفر منه .. أكثرها ما زال يقاوم بعناد مثل «أم آية» وبعضها خرج علي الناس شاهرًا سيفه فعلاً. .. إما أن تجد نفسك بينهم غداً أو أنت عدو لهم..

عندها أين سنكون وماذا سنفعل نحن الذين لن نستطيع الفرار إلي سويسرا ؟.. أرجو من الإخوة الاقتصاديين العباقرة أن يردوا !